تونس والقضية الفلسطينية، ١٩٦٤ ـ ١٩٨٢

في السابع من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٧، أُصدر، في تونس، بيان طبي موقّع عليه من الاطباء الستة الذين يتولون علاج الرئيس الحبيب بوقيبة، يقررون فيه ان حالته الصحية لا تسمح له بممارسة مسؤولياته السياسية. واستناداً الى هذا التقرير، أعلن رئيس الوزراء والامين العام للحزب الاشتراكي الدستوري الحاكم، زين العابدين بن علي، تنحية بورقيبة وتولي الرئاسة بدلاً منه، كما ينص الدستور على ذلك. وتعهد الرئيس الجديد ادخال تعديلات سياسية ودستورية شاملة تتجه بتونس، بخطوات أوسع، على طريق الديمقراطية. ولكنه، ومعه باقي القادة الجدد، أكد، في تصريحات متتالية، أن سياسة تونس نحو القضية الفلسطينية سوف تظل ثابتة لا تتغير . ومعنى ذلك، ان تونس سوف تستمر في السياسة ذاتها التي انتهجها بورقيبة، وتنظر الى القضية الفلسطينية من المنظار ذاته الذي كان ينظر اليها منه.

فيما يلي نتناول موقف بورقيبة من القضية الفلسطينية وآراءه في طرق حلها؛ لأن لبورقيبة آراء أثارت في العالم العربي ـ حين أدلى بها في العام ١٩٦٥ ـ عاصفة مدوّية، وتعرّض، بسببها، للاتهام بالخيانة، واندلعت ضده التظاهرات في بلاد عربية عديدة . كذلك، ثارت بينه وبين منظمة التحرير الفلسطينية، بزعامة أحمد الشقيري، أول أزمة عنيفة، وقطعت العلاقات بين تونس وبين مصر وسوريا والعراق، ورفضت تونس المشاركة في اعمال الجامعة العربية.

ولكن بعد هذه الازمة بحوالى عامين وقعت حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧، ودخلت القضية الفلسطينية مرحلة جديدة تماماً، وقبلت مصر والاردن وسوريا شروطاً كانت ترفضها من قبل، بينما ظل بورقيبة متمسكاً بآرائه السابقة؛ فهو لم يكفّ للحظة عن ترديدها، ولم يدخل عليها أي تعديلات، منذ ان اعلنها، أول مرة، في شباط (فبراير) ١٩٦٥ في مدينة اريحا، في الضفة الغربية.

التجربة التونسية وتحرير فلسطين

كانت المرة الاولى التي يطلع فيها العالم العربي على آراء بورقيبة، بالنسبة الى قضية فلسطين، على نطاق واسع، في اثناء انعقاد مؤتمر القمة العربي الاول في القاهرة في كانون الثاني (يناير) ١٩٦٤. وقتها، ازداد اهتمام الدول العربية بالقضية واخذت تلوح في الافق بوادر صدام مسلح جديد بينها وبين اسرائيل، بسبب لجوء العرب الى محاولة استثمار مياه نهر الاردن، وانشاء القيادة المشتركة. وفي ذلك المؤتمر، ألقى بورقيبة خطاباً، قوّم فيه القضية الفلسطينية، فقال: «... [ان] قضية فلسطين ليست، فقط، قضية بين عرب ويهود؛ انما هي قضية شعب افتكت بلاده من ايديه بالقوة والاستبداد، ليحل محله بها أناس نزحوا اليها من اصقاع متباينة، ولا ترتبط بينهم الا العصبية العنصرية، والحميّة الدينية، والاعتقاد الضال بأن ما نزل باليهود من تشتيت وتفرقة يمكن جبره بالقهر وبسفك الدماء وتشريد الابرياء. هذه قضية فلسطين في نظرنا. وهي لا تختلف، في جوهرها، عن سائر المشاكل الاستعمارية. وهي لا تختلف، بالخصوص، عن قضية اولئك الافارقة بجنوب افريقيا، الذين اغتصبت بلادهم وأصبحوا فيها مشردين منبوذين. ومن الغريب، المؤسف، ان الدول الافريقية، التي تقاطع حكومة الميز العنصري، لم تفهم، في غالبيتها، ان لا اختلاف بين القضيتين؛ وان المأساة بفلسطين قد تكون أشنع وافظع، لأن المستعمر الصهيوني بغيته ان يستقل بالبلاد كلها وان يطرد منها البقية الباقية من سكانها الاصليين. فقضية فلسطين استعمارية، وخصائص المشكل الاستعماري كلها متجمعة فيها : منها نزوح اقلية الى بلد تفرض عليه وجودها بالقوة والقهر؛ ومنها ذلك التفاوت الفادح في القوى بين الغاصب المستبد وبين شعب مغلوب على